مياه لبنان البحرية

للاب هنري لامنس اليسوعي مدرس الجغرافية الشرقية في المكتب الشرقي (تتمة)

٢ أكثبة الرمل

ومما يتوط بدرس المياه الساحلية في لبنان أكثبة الرمل التي تتراكم على الشواطئ بفعل البحر . وتُرى هذه الكثبان على سيف بحرنا المتوسط وهي قليلة الارتفاع لضيق دائرته وقلة ما يجري فيه من المد والجزر فلا تستطيع الرمال ان تجد مداها من الحركة والانتشار . اما تكوُّنها فيحدث عادة في الشواطئ الرملية القليلة الانحناء. فتنسف الرياح دقائقها وتنقلها من مكان الى آخر حتى اذا وجدت في طريقها حاجزاً من صخر او نبات تجمعت حوله ولا تزال تنمو شيئاً فشيئاً الى ان تصير على شبه ربوة . ثم تهبُّ الرياح وتلعب السوافي في اعالي هذا الكثيب التي لا تمسُّها امواج البحر فتذري رمالها اليابسة وتنقلها الى ما وراء هذا التلّ فيتكوَّن منها تلٌّ آخر وهلم جرًّا. اما الامواج فتقاطع سفح الكثيب الاوّل وتنقل اليه رمالاً جديدة تعلو وتتكوَّم فتعمل الرياح فيها كما فعلت سابقًا . وهكذا لا تزال هذه الهضاب الرملية في حركة دائمة تتقدَّم الى الامام دون انقطاع . ويكون امتدادُها بأن تجري الى حيث تجد نتوءًا من الارض او عائقًا فتتجمَّع حوله رُبًى جديدة مستندة الى اعطاف الاكثبة السابقة . وهي لا تلبث بعد حين ان تولّد آكاماً اخرى فتنتصب على شبه سلسلة من التلال المتحركة يفصل بينها ألهاب واودية ضيقة مستطيلة (١)

على انَّ الآكام الرملية التي تُرى في سواحل بحرنا المُقبِّل الحالي من الجزر والمدّ ليست كأكثبة البحار الواسعة . كما انهُ لا اثر لهذه التلال في السواحل الوطيئة المتركبة من المواد الصلصالية او الصلبة التي لا تحركها الرياح والامواج بسهولة كفعلها بالرمل وانما تتكوَّن فيها سدود من الحصى التي تقلبها الأمواج على بعضها الى ان تصقل بالاحتكاك وربَّما تكوَّمت اكواماً دون التلال الرملية علوًّا واتساعاً

وان سرّحنا البصر في سواحل بلادنا وجدنا مصداقًا على قولنا اذ لا يوجد من هذه

١) راجع ما كتبهُ روكلو في كيفية تكوُّن هذه الاكثبة في كتابه « الارض » (ج ٢ ص ٢٤٦)

النشوز الرملية الّا في بعض نقطٍ معلومة تمرح فيها الامواج والرياح معاً كمثل اشباه جزائر صور وبيروت وطرابلس . وكثبان الرمل لا تتكوّن في كلّ هذه الجهات من جهة الشمال بل من الغرب حيث الشواطئ السفلى الرملية فتنسفها الرياح الغربيّة المتواصلة فتتراكم بفعلها . وهذا مما يلوح خصوصاً في نواحي بيروت فترى ثنّت توارد الرمل الذي يزحف بخيله ورجله ويغطي سهولاً مخصبة تهوص في وسطها بيوت والشجار لم ينظر الناظر غير اعاليها . وكذلك طرق العجلات فان الرمال تعلوها بحيث لا تعود تصلح للسير

على انّ لهذا الداء دواء اذ يُمكن ان يُجعل حدٌّ لمسل الرمال بالزراعة ونصب الاشجار التي وحدها تقوم بازاء هذا العدوّ الزاحف فتقوى على ذرّاته ودقائقه . ومن العجيب العُجاب انّ في هذه الرمال مع يبوستها قوّةً مخصبة ومائيّةً كافية لنماء بعض النباتات التي لا تؤذيها الرياح البحريّة المشبّعة ملحاً وهي تمدُّ جذورها الى اعماق بالغة لتمتصّ الرطوبة التي تحتاج اليها لحياتها . فمن ذلك بعض النباتات الزاحفة الطويلة الاغصان على شبه الحبال كاللوب فتراها تمتدُّ على وجه الارض كشبكة تزينها بزهورها واوراقها . ومن النباتات الرمليّة اشجار الميسوزا والصُّنَيْر وبعض الشجيرات المشوكة وكأنها يردُّ غارات الرمل ويمنعهُ عن ان يتعدّى طورَهُ

لكنّ هذه الوسائط ربّما قصرت عن ادراك الغاية او بطلت مناقضها كما يجري لكثير من النبات الغضّ الذي يأكلهُ الماعز . فلا بُدَّ من اتخاذ احتياطات اعظم بنصب اشجار تقوى على السوافي وتسدُّ الطريق في وجه الرمال . وهذا ما قامت بهِ الدولة الفرنسويّة في احدى مقاطعاتها التي كثرت فيها الرمال وهي مقاطعة غسكونية المجاورة للاوقيانوس فانّ الرياح مع الامواج البحريّة كانت تسفي عليها كميّة من الرمال كادت تسجيها كالكفن بعد ان غمرت قسماً من قراها . فارادت الحكومة تلافي هذا الامر فباشرت بنصب غابات الشجر منذ نصف قرن وهي لا تزال جارية في العمل وهي تنجزهُ عمّا قليل فصارت كثبان الرمل في بلاد غسكونية موردًا للثروة بعد ان كانت آفة متلفة . فانّ غابات تلك المقاطعة الواقعة جنوبي غربيّ فرنسة تُعتبر اليوم كمَعْنًى لها لما يستثمر منها من الخشب وما يُستخلص من المواتع الراتينجيّة وهي تساوي في السنة مئات الوفر من الفرنكات . امّا الغابات نفسها فيثمنها العارفون بخمسة وعشرين الى ثلاثين مليوناً . ومن الفوائد التي احرزتها تلك الجهات بفضل الغابات اعشابٌ وافرة ينبتها الرمل الرطب

وهي تصلح للمواشي . وكذلك قد تلاشت المستنقعات التي كانت في تلك الانحاء لانَّ جذور الشجر امتصَّتها شيئاً فشيئاً الى ان يَبست وصار الهواء بفنائها هيِّناً طيِّباً واضحت الغابات على هذا النمط زينةً وشفاء معاً

وهنا فليسمح لنا ارباب الامر ان نستلفت انظارهم الى رمال بيروت التي يمكنها ان تخصب مدينتنا وترينها اذا ما أعملوا فيها ايدي الزراعة . واوَّل ما ينبغي فعلهُ ان لا يُرخص للبدوان وللرعاة ان يرعوا فيها مواشيهم . فانَّ رمال بيروت في الربيع تأتي بشيء من الكلإ وبعض الانبتة التي يمكنها ان تنمو وتركو لولا يتجوَّل فيها هؤلاء الرعاة بقطعانهم فيحوِّلونها الى رمالٍ جرداء تتلاعب بها الرياح وتنشرها على انحاء المدينة في بعض فصول السنة بدلاً من ان تكون بقعةً خضراء غضراء تروق العين بنضارتها وتخصبها بثروتها

واقنع من ذلك ان تُغرس انصاب الصنوبر فانَّ هذا الشجر كما حقَّقتهُ الاختبارات المتوالية شرقاً وغرباً انجع دواء لهذا الداء واقوى عامل على ردّ غارات الرمال . ومن ثمَّ لا يؤاخذنَّ الانسان غير نفسهِ ان تقاضى في استعمال هذه الواسطة القريبة المنال التي من شأنها ان تُصلح تهاملهُ وهو السبب الاوحد في ما يجري من الخلل في توازن قوى الطبيعة المتَّسقة وفقاً لنظام العناية الصمدانيَّة

ويؤيد قولنا ما كتبهُ في هذا الصدد كلُّ الذين بحثوا عن تكوُّن الاكثبة الرمليَّة فانَّهم يتَّفقون في القول بان هذه التلال حديثة النشأة وانَّ في مكانها كانت سابقاً تمتدُّ الاحراج والغابات فلمَّا قُطعت اشجارها استولت عليها الرمال . وهذا قول عمومي يصحُّ في السواحل الاوربيَّة كما في شواطئ بحرنا . ومن تصفَّح التواريخ اليونانيَّة او اللاتينيَّة لا يجد ذكراً لهذه الروابي الرمليَّة الى عهد القرون الوسطى بل تراجم على عكس ذلك يشيرون الى الغابات القائمة مكانها او الى عمارتها

انَّ في نصف الطريق الجارية بين صيداء وبيروت في المحل المعروف بنبي يونس بنايةً قديمة تراكمت عليها الرمال فلم يُرَ منها الَّا قبَّتها البيضاء . وهي بناية اسلاميَّة بلا شكّ تدلُّ هيئتها على اصلها وزمنها . فتكون الرمال توارِدت عليها حتَّى كادت تغمرها بظرف بضع مئات من السنين . وكذلك اذا سرت شمالاً الى نهر الفدير على مسافة

نصف ساعة جنوبي خلدة بلغت موضعاً يُدعى القصر كان بقربه محجّة تغطّيها الرمال في عهدنا والمرجّح انّ ذلك حدث بعد الاسلام فيكون عمل الرمل فيها حديثاً. وفي نُقط اخرى من الساحل عند رمال بيروت آثار تدلُّ على عمران سابق وحداثة عهد الرمال

وقد زعم بعض الكتبة انّ اصل بيروت من غابة صنوبرها وان معنى اسمها الصنوبر. وهو قول ضعيف والرأي الأسدّ انّ اشتقاق اسمها من البئر ومعناها مدينة الآبار. لكنّ في هذا الزعم نفسه دليلاً على قدم غابات صنوبر بيروت وقد افردنا لذلك مقالة مستقلّة (راجع المشرق ١: ٩٣٩—٩٤١) حيث اوردنا عدّة شواهد على قولنا فلتراجع فانها تثبت انّ قسماً من شبه جزيرة بيروت كان مزدانًا بغابة من الصنوبر وبقيت هذه الحال الى القرن الثالث عشر كما يشهد على ذلك الشريف الادريسي اذ قال «بان غابة صنوبر بيروت اثنا عشر ميلاً في التكسير تتصل الى تحت لبنان» وهذه المسافة الواسعة لا تدع مكاناً للرمال كما تُرى اليوم ما لم يُقَل انّ هذه الغابة كانت تشغل السهول التي فيها اليوم مزارع الزيتون وهي المعروفة بصحراء الشويفات. وهو قول بعيد لانّ هذه المزارع كما يظهر قديمة ايضاً ورد ذكرها فيما لدينا من سجلّات وتواريخ القرون المتوسطة. ويكفي لردّ هذا الزعم انّ القناة الرومانيّة المعروفة اليوم بقناطر زبيدة لم تُتّخذ غالباً الّا لسقي هذه المزارع الواقعة في ارباض البلدة. وبقيت غابة بيروت زاهرة غنّاء بعد الادريسي فانّ صاحب تاريخ بيروت (ص ٥٢) ليس فقط يذكر ما كانت عليه سهول بيروت من الخصب والرّيع بل يروي انّ اصحاب الامر ابتنوا من صنوبر المدينة عمارة لحارية لسطول صاحب قبرس وقد وصفها بما حرفهُ: «قيل انهُ لم يُعهد قطّ عمارة مثلها عظماً وسرعةً وكثرة صنّاع وقوّة عزم». ومع هذا الوصف البالغ للعمارة لم تنفد الغابة لانّ المسافرين الذين زاروا بلاد الشام في القرنين الخامس عشر والسادس عشر يذكرونها بيد انهم لم يجدوها في اتساعها السابق. وعندنا انّ الرمال اخذت مذ ذلك الحين اعني بعد تجهيز عمارة بيروت في اواخر القرن الرابع عشر ان تتعدّى طورها. لانّ ما قُطع من الصنوبر لم يُعوَّض عنهُ بغرس اشجار غيرها وربّما قطعوا منها غيرها بعد ذلك كما فعل محمّد الجزّار (١. ومن ثمّ لم تجد الرمال ما يتعرّض لها في سيرها فتراكمت الى ان وصلت الى حدّها المعروف

١) راجع ريتر (Ritter, XVII, 431)

في زماننا وهو امرٌ يؤسف لهُ ونتمنّى ان اصحاب المروءة يتلافون الامر وقد بيّنا لهم ما وراء هذا الاصلاح من الفوائد والارباح الطائلة مع ما ينجم منهُ من الزينة للبلد والتنظيف للهواء

٣ ارتفاع الساحل البحريّ

انَّ ساحل فينيقية منذ ابتداء طور العالم الرابع لم يزل يرتفع شيئاً فشيئاً الى الازمنة المعروفة بالتاريخيَّة . وهذه نتيجة ابحاث جيولوجيَّة مقرَّرة اثبتها حضرة الاب زُموفن في كتابهِ رسم لبنان الجيولوجيّ (٢ نلخّص هنا ادلَّتهُ مع اضافة ملاحظاتنا الشخصيَّة

قد اتسعنا في مقالتنا عن مجاري لبنان النهريَّة في وصف السدود التي تُرى في مصبّ كلّ انهار لبنان واثبتنا اصلها بفعل مياه البحر والانهار معاً . وهنا لا نرى بدًّا من زيادة عامل ثالث لظهور هذه الحواجز ألا وهو انحدار المياه البحريَّة عند ارتفاع الساحل الذي يتوالى الاعصار تأثيراً تدريجاً وتصاعد . ومن الشواهد على ذلك انك ترى على طول الساحل سلسلة من الصخور تطفو الآن فوق المياه البحريَّة طفواً يختلف تحديد ارتفاعهِ وهذه الصخور في اعلاها مسطّحة دلالةً على فعل الامواج فيها اذ كانت غائصةً في المياه . وفي امكنة اخرى ترى كتلاً من الحصى المصقول باحتكاك المياه على بُعد من الامواج او على نشوزٍ لا تبلغها حتى في الانواء الشديدة . فوقعها دليل على ارتفاع السواحل مع ما يصحبهُ من تقهقر المياه

وزد على هذه البينات العمومية دلائل اخرى تستفاد من فحص بعض السواحل اللبنانيَّة . فمن ذلك انَّ الصخور التي بُنيت عليها صيداء في سالف الاعصار قد ارتفعت كما يلوح ذلك من قلّة المياه في مرسى تلك المدينة . وكذلك امام المدينة عينها جزائر وصخور يُرى مثلها امام صور وطرابلس وكلُّها حديثة العهد متركّبة من الرمل المتلاصق المتصلّب والمجون بالاصداف البحريَّة وهي كانت سابقاً في قعر المياه فلمَّا تحدَّرت المياه ظهرت هذه الصخور متصاعدةً فوق سطح البحر

ولنا شاهد آخر على قولنا في المراسي الفينيقيَّة فانَّ ما يُرى فيها اليوم من الصخور ثمَّ من تراكم الرمال انَّما سببهُ الاوَّل ارتفاع الساحل . وان اعترض احد علينا بقولهِ انَّ السفن الفينيقيَّة القديمة لم تكن لتحتاج الى غور عميق من المياه اذ يفيدنا التاريخ بانها

٢) راجع Zumoffen: *Esquisse géologique du Liban*, 52-57

كانت اشبه بقوارب كبيرة مسطحة يمكنها ان تصعد النيل كالذهبيات الى حدود الاقصر . اجبنا بأن الامر معلوم ولكن هيهات ان تصدق اليوم اوصاف المؤرخين للمراسي الفينيقية القديمة وهم يالغون في ذكر رحبها وامنها للسفن اما اليوم فلا تكاد هذه المراسي تشمل اكثر من احدى سفننا التجارية كما انها لا تقي المراكب من الرياح وانواء البحر . وانما تلتجئ اليها فقط بعض السفن الشراعية الخفيفة . فلولا ارتفاع الساحل لما أمكن تعليل هذا الامر . وان قيل انّ هذه المراسي مُلئت بالصخور والاطلال كما زعم البعض عن فخر الدين المعني . قلنا انّ هذا الواقع قد تناقلهُ قومٌ من الكتبة المحدثين ولم يسندوهُ الى مؤرخ ثقة . فلو صحّ لما سكت عنهُ كَتَبة زمانهِ او احد القناصل والتجّار الاجانب الذين كانوا يتاجرون في بلادنا على عهدهِ . والارجح عندنا ما قلنا وهو سبب طبيعيّ ثبت اليوم بالبحث الصحيح ومن ثمّ لا نرى سنداً لما تروبهِ العامّة عن فخر الدين من انهُ غمر مرسى صيدا بالاطلال والصخور

هذا وقد اشرنا غير مرّة الى قول الجيولوجيين بان بيروت كانت في الاعصار الغابرة جزيرة تحيط بها المياه بحيث كانت هذه المياه توصل خليج الحضر بوادي شحرور . اما اليوم فبين هذين الطرفين سهول مخصبة ليس لوجودها تعليل آخر الّا ارتفاع تلك الامكنة . وكذلك قد وُجدت في امكنة شتّى صُبَرٌ من الحصى البحري المصقول والصدف منها على طريق الشام عند الطعم المعروف بلوكندة المطران وكذلك على منعطف الاشرفية عند مار يعقوب وهذه الامكنة تتراوح بين عشرة امتار الى ٤٠ متراً فوق سطح البحر فلا شكّ ان وجود هذه الآثار البحرية دليل على انّ المياه كانت تغمر تلك المحلّات ثمّ تحدّرت بارتفاع تلك المواقع

ومما سبق لنا قولهُ في مقالتنا عن مجاري لبنان النهرية ان سطح المياه عند مصبّ نهر الكلب كان سابقاً اعلى منهُ اليوم وأيدنا رأينا بآثار السكك المصرية والاشورية والرومانية وكلها تُرى في نُقط تعلو الطريق الحالية . ولا نظنّ انّ الامم القديمة فتحت هذه الطرق في تلك المشارف الصعبة لولا أنها كانت مضطرّة الى ذلك بما وجدتهُ من العوائق الطبيعية في سيرها ولا سيّما ارتفاع المياه البحرية والنهرية معاً . وهكذا يجوز شرح نصّ اسطرابون حيث قال انّ نهر الكلب يمكن خوضهُ بالسُّفن وقد مرّ . وزد على ذلك انّ في الطريق الرومانية التي هنالك بقايا اصداف بحرية وحصى مدلوكة ملتحمة

بعضها . وهو دليل على بلوغ البحر الى تلك النشوز في الازمنة السابقة للتاريخ . وعليه فتتفق الادلة على الطورين معاً . لما كون الطريقة المصرية فوق الطريق الاشورية والطريق الاشورية اعلى من الرومانية ففي ذلك دليل ظاهر على انّ تحدُّر المياه وارتفاع الساحل كان تدريجياً بكرور الدهور

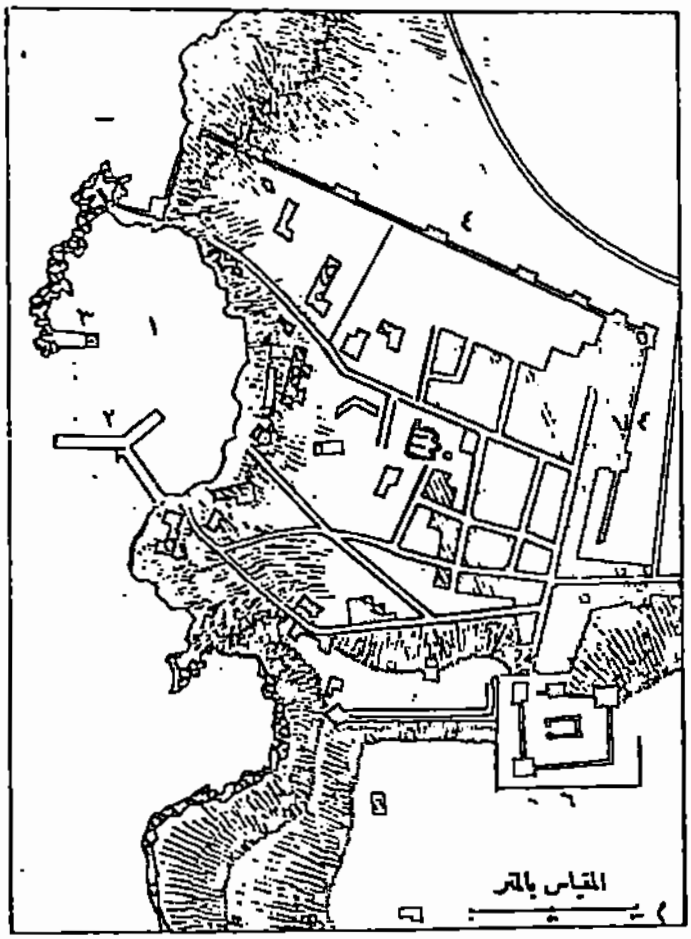

رسم جبيل نقلاً عن المسيو راي

١ المرفأ ٢ بناية المرسى ٣ بقايا برج ٤ سور البلد ٥ كنيسة مار يوحنا ٦ القلعة

وكذلك ترى بين نهر ابراهيم وجبيل وبين جبيل والبترون جُثَى من الاصداف البحرية على علوّ عشرة امتار من سطح البحر حالياً . وذلك مما يثبت ايضاً قولنا عن ارتفاع الساحل ثمّ اننا في مطاوي كلامنا عن أنقة (راجع آثار لبنان ج ١ ص ١٤٦) ذكرنا

لها خندقين عظيمين حُفرا في رأسها الذي بقربه موقع البلدة . واليوم اذا اعتبرت قعر هذين الخندقين اللذين يفصلان رأس انفة عن البرّ وجدتهُ يابساً لا يتّصل اليهِ البحر . وعندنا انَّ الامر كان على خلاف ذلك في عهد الفينيقيين وهم الذين قاموا بهذا العمل العظيم . ونحتوا الخندقين ليملأهما ماء البحر ويردّوا بهما غارات العدوّ من الجهة الشرقيَّة عن المدينة التي كانت حصناً حصيناً . فان يبوستها اليوم تدلُّ على انَّ الساحل ارتفع فلم تعد المياه البحريَّة تتصل بهذين الخندقين

وكلُّ هذه الادلَّة والآثار التي جمعناها من امكنة شتَّى على الساحل الفينيقيّ مباشرةً من مصبّ نهر القاسميَّة الى نهر ابي علي . وهي تبرهن على انَّ الساحل الفينيقيّ ليس فقط في الازمنة السابقة للتاريخ لكن بعدها ايضاً لم يزل على تصاعُد متوالٍ والبحر على تقهقر وتحدُّر . وفي كل ذلك تتحقَّق السُّنَّة التي وضعها الخالق عزَّ وجلّ فانَّ البحر لمَّا كان طامي ويبغي فيدّمر بمياهه الساحل صار لذلك فعل انعكاس من جهة الساحل بان ارتفع واعتلى فظهرت الحكمة الصمدانيَّة التي جعلت لقوى الطبيعة قوانين لا تتعدّاها . وفي درس الجغرافية ما يكشف لنا القناع عن هذه الحقائق والسُّنن التي فيها نظام الخليقة كلها

العاب القمار

للشاب الاديب ميشال افندي الياس سماحه

اوضحنا في كلامنا السابق عن البورصة ومضارباتها (المشرق ٧ : ٧) المضارّ الناتجة عن اشغال البورصة والعاب المضاربات وأجلنا الكلام عن العاب القمار فايفاء بما وعدنا نخصّص هذا المقال بالمقامرات وما يتوط بها

قد لا يخلو فردٌ في الهيئة الاجتماعية من عادةٍ يألفها وقت الحطّة او ميلٍ ينصرف اليهِ في ساعات الفراغ . والناس من حيث اميالهم وعاداتهم ينصرفون الى مذاهب شتَّى وذلك امَّا حسب معدنهم واستعدادهم او تبعاً لما توفقهم اليهِ الاحوال من طرائق التسهيل او لما يتمهَّد لهم من وسائط التشويق والترغيب